القَصص القرآنى
أنبياءُ الهدى

يوسُف الصِّديق

ليلى مبروك



القَصَصُ القُرْآنيُّ

أنبياءُ الهدى



يوسُفُ الصِّدِّيقُ

قلـــم : ليلى مبروك يوسُف

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

رقم الإيداع : ١٧٢٨٨ /٩٨

الترقيم الدولى : 1 - 7760 - 19 - 977

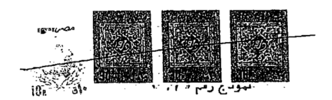
شكر وتقـــدير

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من تعاون فى إخراج تلك الصفحات التى تنطوى على أحسن القَصص

وأخص بالشكر مَن كان بمثابة الأب والأستاذ الكريم .. أخص بالشكر أستاذى الفاضل / محمد إبراهيم سليم .. الذى تفضَّل بالمراجعة اللغوية بقلبٍ خالص لوجه الله تعالى .

أدعو الله أن يبارك لنا فيه ويبارك له فى ذريته .. وأن يمنحه القدرة على دوام العطاء . اللهم اجزه خير الجزاء .

ليلى



بسم الله الرحمن الرحيم

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر الشريف
مجمـــع البحـــوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحـــوث والتأليف والترجمـــة

السـيد / ليـلى مـبروك يوسـف

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : القصص القرآني ... أنبياء الهدى (يوسف الصديق) تأليف : سيادتكم ....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

٩٨/١٢/١٢

تحريرا في ٢٤ / ٨ / ١٤١٩ هـ
الموافق ١٣ / ١٢ / ١٩٩٨ م

القَصَصُ القرآنىُّ ومعنى الصيامِ

إنَّ الصِّيَامَ هوَ الصَّبرُ على الحرمانِ ، والحرمانُ من الطعامِ أبْسَطُ أَنواعِ الصبرِ والإيمانِ ؛ فصيامُ رمضانَ تدريبٌ على تَحَمُّلِ الصِّعابِ .. إِنّهُ رحمةٌ منَ اللهِ بالعبادِ .. ويتمثلُ فى قَصَصِ القرآنِ الكريمِ أعظمُ مثالٍ .. إنّ فيها العبرةَ لأولى الألبابِ - لاَ تَقُلْ صُمْتُ وتعبتُ أيها الإنسانُ .. بل اقرأْ قَصَصَ القرآنِ ، عَلَّكَ تجدُ ذاتَكَ فى أحدِ الأبطَالِ .. وأجبْ : منْ أنتَ ؟ ما دورُكَ فى أحداثِ القصةِ ؟ هلْ تَقْدرُ حقًّا على الصبرِ والصيامِ ؟

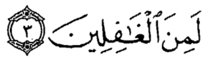
هَيَّا عزيزى الإِنسانَ نبحثْ مَعًا عنْ أنفسِنَا فى قَصَصٍ منَ القرآنِ ...

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

أعوذ بالله
من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ
لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾



(١) القصة بنص القرآن :
سورة يوسف – الآيات ٣ : ١٠٢ .



كانَ يُوسُفُ – عليهِ السلامُ – أولَ أنبياءِ بَنى إسرائيلَ ، وإسرائيلُ هوَ النبىُّ يعقوبُ ابنُ النبىِّ إسحاقَ ابنِ النبىِّ إبراهيمَ – عليهِم السلامُ – سُلاَلَةٌ طاهرةٌ منْ أنبياءِ اللهِ الكرامِ .

كانَ لِيُوسُفَ عَشَرَةٌ مِنَ الإخوةِ غيرِ أشقَّاءٍ .. وأخٌ واحــدٌ شَــقيقٌ اسمهُ بنيامــينُ . كــانَ الإخوةُ فى عُمرِ الشبابِ ، أما يوسُفُ وبنيامينُ فقدْ كانا طِفْلَيــْنِ . أَحَبَّ يعقوبُ يوسُفَ وَبنْيَامينَ وَفضّلَهُمَا عَلَــى ســائرِ إخوتِهما فحقدوا عليهما .

وَبَدَأَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ عليهِ السلامُ .. بدأتْ برُؤْيَا .. وانتهتْ بتحقُّــقِ الرُّؤْيــَا .. كانتْ الرُّؤيا عجيبــةً .. غريبةً.. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾. (٤)

أحسَّ الأبُ أنَّ يوسُفَ سوفَ يصيرُ لَــهُ شأنٌ عظيمٌ .. وخــافَ عليهِ منْ إخوتهِ أن يَحْسُدُوهُ ويكيدوا لهُ كيداً ..

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ . (٥)

إنَّها البُشْرَى ؛ إنَّ اللهَ يصطفيكَ يا يوسُفُ .. يَهبُكَ منْ أسرارِ العلمِ والحكمة .. ويُعلمُك تفسيرَ الرؤى .. إنَّ اللهَ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ يَختارُكَ نبيًّا لتحملَ الأمانةَ العُظْمَى .. ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . (٦)

أطاعَ يوسُفُ أباهُ .. لم يقُصَّ رؤياهُ على إخوتِه .. وسمِعَها الشيطانُ، فاشْتدَّ غيظًا وحقدًا على يوسُفَ ، وعلى ما سوفَ يصيرُ إليه يوسُفُ .. لكنَّهُ لا يعرِفُ سبيلاً إلى الأنبياءِ ، فراحَ يبُثُّ سمومَهُ فى نفوسِ الإخوة.. فكانت المؤامرةُ .. مؤامرةُ بَنى إسرائيلَ على أخيهِمْ يوسُفَ . جلسوا يتآمرونَ ويكيدونَ .

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨)

لَقَدْ ضَلَّ الرجلُ ، وأخطأَ خطأً عظيمًا ، كيفَ يُؤْثِرُ علينا طفلينِ صغيرينِ لا حولَ لهمَا ولا قوةَ .. ونحنُ مجموعةٌ من رجالٍ أقوياءَ ، قادرينَ على حمايتِه وتحمُّلِ مسئوليتِه !

وضَحِكَ الشيطانُ .. كـــادَ يطقُّ مِنَ الضَّحِكِ ! وتســـرَّبَ إلى قلبـــه الأمـــلُ .. تجمَّعَ الشرُّ فى جملة أو جملتينِ .. قال : أنتمْ لُعْبـــَتى .. أنتمْ مَنْ أُنفِّذُ بِكُمْ رغبتى ... (ها ها ها).

وراحَ يؤدى دورَهُ الطبيعىَّ كشيطانٍ ! راحَ يؤديه بإتقانٍ ! ضَخَّــــمَ الحقدَ والضغينةَ فى النفوسِ .. هَـــوَّنَ الجريمةَ ، وزينَّـــهَا للعقـــــولِ .. فراحتِ الغَيـــْرَةُ تغلى فـــى العُروقِ .. واشتعلتْ نيرانًا فـــى القلـــوبِ .. راحَ بنُـــو إسرائيلَ يُـــفكِّرونَ ويُدبِّـــرونَ.. ماذا لو قُتِـــلَ يوسُـــفُ ؟ أو أُلْقِـــىَ فى أرضٍ نائيةٍ مهجـــورةٍ .. لا طعـــامَ فيهـــا ولا شـــرابَ ؟ يمـــوتُ فيها بعيدًا .. فيَبْعُدَ عن وجهِ أبينا .. ويخلُصَ لنا حبُّه فنستريحُ .. إنها مسألةٌ بسيطةٌ .. نتخلَّصُ من يوسُفَ ثم نتوبُ ، ونصيرُ من بعـــده قومًا صالحينَ .

هكذا كانتِ الفكـــرةُ الشيطانيةُ .. أعلنوهَا بينهم وانطلقوا يقولون: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩).

اجتمعتْ إرادةُ الشيطانِ مـــع إرادةِ الإخوةِ ، وكانتْ إرادةُ اللهِ هـــى العليا .. قَدَّر ليوسُفَ طريقًا .. فكان لابد أن يعيشَ ، ويمضىَ فى الطريق. ألقى اللهُ فى رُوعِ أحـــدِهم رأيًا آخرَ . ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ . (١٠)

واتفقوا على هذا الرأيِ ؛ أن يلقوه فى أعماقِ البئرِ ، فيأخذَه بعـــضُ المســـافرينَ المارّين بالطريقِ .. ويرحلوا بعيدًا .. هكذا يمكنُهمْ التخلُّصُ منه بلا شروعٍ فى جريمةِ قتلٍ .

رسموا على وجوهِهمْ الوُدَّ والحبَّ والحنانَ ، وذهبوا إلى أبيهمْ يصطنعونَ الرقةَ واللطفَ والهُدوءَ .. قالوا : إنَّ خالَ يوسُفَ لا يعجبُنا يا أبانا.. إنـــه طفـــــلٌ صغيرٌ لا يعيشُ كسائرِ الأطفالِ .. فخوفُكَ عليه شديدٌ بلا داعٍ .. ما معنى أن يعيشَ طفلٌ جميلٌ برئٌ كهذا بين جدرانِ البيتِ ! إنهُ يحتاجُ إلى الشمسِ والهـــواءِ .. يحتاجُ إلى اللَّعبِ والمرحِ والانطلاقِ ، ما لك لا تأمنَّا على يوسُفَ يا أبانا ! إنَّا إخوتُه ونحبُّـــه .. نحـــافظُ عليـــه ونرعاهُ.. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.(١٢)

قال الأبُ : إنكـــم تعلمون يا أبنائى أنى أُحبُّ يوسُفَ كثيرًا ولا أُطيقُ فراقَـــه .. ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾.. (١٣)

وأخافُ أن تَغْفُلوا عنه فيأكلَـــه الذئبُ .

قالوا : أيُعقَلُ هـــذا يا أبانا ! ألا تعرفُ قَدْرَ أبنائك ! لئن أكله الذئـــبُ ونحنُ معهُ لصارَ ذلك عارًا علينا مدى الحياةِ .. إنّنا رجالٌ أشدَّاءُ فكيـــفَ يأكلهُ منا ذئبٌ ؟! أبعِدْ هذا الخوفَ عن قلبك يـــا أبانـــا .. وتَيَقَّـــنْ أنَّ يوسُفَ الحبيبَ معنا فى أمانٍ .

وافقَ الأبُ ، وأشرقَ صباحُ الغدِ .. خرجَ بنو يعقوبَ بأخيهِمْ يوسُفَ .. أخذوه بعيدًا .. بعيدًا فى الصحراءِ .. ووصلوا إلى بئرٍ .. كان البئرُ على طريقِ القوافلِ السيَّارةِ .. قوافلِ المسافرينَ المارِّينَ بالطريقِ .

والتفَّ الإخوةُ حولَ يوسُفَ .. انقضُّوا عليه كالوحوشِ .. جرّدوه من قميصه .. فَزِعَ الصغيرُ ، وراح يصرخُ ويقاومُ .. فحملوه ، وألقَوْهُ فى غَيَابَةِ الجُبِّ .

ووجد المسكينُ نفسَه وحيدًا فى قاعِ بئرٍ مظلمةٍ رهيبةٍ .. يا لَقَسوةِ القلوبِ ! قَستْ عليه قلوبُ إخوتِه ! وأدركتْهُ رحمةُ ربِّه .. ألقى سبحانَه وتعالى فى رُوعِه أنه ناجٍ .. أنه سيعيشُ .. سيواجهُ إخوتَه يومًا بهذا الموقفِ الفظيعِ .. سيواجهُهم وهم لا يشعرونَ .. ولا يعلمونَ أنه يوسُفُ .. واستقرتِ الفكرةُ فى نفسِ يوسُفَ فاستراحَ ، واطمأنَّ قلبُه .

مضى اليومُ .. جاء الليلُ .. وعادَ بنو إسرائيلَ .. عَمَدُوا إلى قميصِ يوسُفَ .. جاءوا عليه بدمٍ كَذِبٍ .. ونسُوا أن يمزقوه ..

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ (١٦)

ذُهِلَ الأبُ : قال : ما لكم ؟! لماذا تبكونَ ؟! فانخرطوا فى البكاءِ يقولون : إن قلوبَنا تكادُ تنفطرُ من فرطِ الحزنِ والندمِ .

رد الأبُ : تكلمُوا .. ماذا دهاكم ؟! وأين يوسُفَ ؟

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ ﴾ (١٧)

ارتعد الأبُ فزعًا .. رمقهم بنظرات الرِّيبة والشك .. إنّها لُعبةٌ مكشوفةٌ من البداية .. لقدْ قال لهم بالأمسِ : أخافُ أن يأكلَه الذئبُ .. وجاءوا اليومَ يقولون : أكلَه الذئبُ .. وكأنهم تركوه للذئب الذى حذَّرَهم منه بالأمسِ . أحسوا أن الكِذْبَةَ قد انكشفت .. فعادوا إلى البكاءِ .. راحوا يتباكونَ ويقولونَ: صدِّقنا يا أبانا .. إنَّا لا نقولُ إلا الحقَّ لكنَّا نعلمُ أنك لا تحبُّنا .. فلن تُصدِّقَنا حتى ولو كُنَّا صادقينَ . وَأرادوا أن يُقدموا دليلَ البراءةِ .. فقدموا دليلَ الإدانةِ .. أعطَوْه قميصَ يوسُفَ وقالوا: انظرْ يا أبانا .. لقد أسالَ الذئبُ اللعينُ دمَ يوسُفَ الحبيبَ.. وهاكَ الدليلَ .

أمسكَ الأبُ بالقميصِ .. تأملَهُ وقالَ : لا تظلموا الذئبَ أيها الأبناءُ .. إنه ذئبٌ طيبٌ .. أكلَ ابنى من داخلِ القميصِ ! أسالَ دمَه وترك القميصَ سليمًا ! لم يمزقْهُ .. ولم يَخدشْ فيه خدشًا واحدًا !!

ولزِمَ الصمتَ .. راحَ يفكرُ بعقلِ الإنسانِ .. ذلكَ المخلوقُ البشرىُّ الذكىُّ الذى حملَ الأمانةَ منذُ بدءِ الخليقة .. وأبصرَ الحقيقةَ .. أبصرَها بمشاعرِ الأبوةِ .. ونورِ النُبوةِ : إنها النفسُ الأمارةُ بالسوءِ .. زينّتْ لهم المكرَ والخُبثَ والخِداعَ .. إنهم يكذبونَ ويصفونَ الكَذِبَ كيفما يشاءونَ.. أدركَ يعقوبُ أنهم يُصِرُّونَ على إبعادِ يوسُفَ .. ولن يُعيدُوه .. أدركَ النبىُّ الكريمُ أنه لا جدوى من المواجهةِ .. فأعرضَ عنهم .. ولم يواجهْهم إلا بجملةٍ واحدةٍ .. ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . (١٨)

أحسَّ الأبُ أن ابنَـــه لا يزالُ حيًّا لم يمتْ .. وأنه ســـوفَ يلقـــاهُ يومًـــا مًّا .. فالتزمَ الصمتَ .. تجرَّع الحزنَ واستعانَ باللهِ .

عاشَ يعقوبُ معَ الدمـــوعِ والأحزانِ .. مـــع الأمـــلِ والرجـــاءِ .. والدعاءِ والخشوعِ .

وجاءتْ سيارةٌ .. مرتْ قافلةٌ على طريقِ الجُبِّ .. فأرسلوا واردَهُم ليأتيَهُـــم بالماءِ .. فأدلى دلوَهُ .. تعلَّقَ به يوسُفُ .. ولما أخرجَ الدلوَ.. رأى طفـــلاً جميلاً .. يتلألأُ وجهُه نورًا .. تهلل الرجلُ فرحًا .. كادَ لا يصدقُ عينيه..﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ . (١٩)

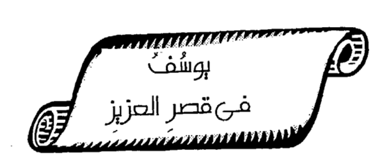
أَسَرُّوهُ .. أَخْفَوْهُ في رِحالِهِم .. وأخذوهُ بضاعةً سريةً ! أخفَوْا أمـــرَهُ حتى يبيعـــوه رقيقًا .. لم يعرِفوا قدْرَ يوسُفَ الحقيقيَّ ولم يدركوا أن اللهَ لا يخفَى عليه شَىْءٌ .. وأنه عليمٌ بما يعملونَ ..

هكذا نُزِعَ الطفلُ المدللُ البرىءُ من حِضنِ أبيه.. حُرِمَ حُبَّه وحنانَـــه.. حُرِمَ الأمانَ .. وتحولَ إلى بضاعـــة .. تحول إلى عبـــدٍ يباعُ في ســـوقِ الرقيقِ.. ورحلتِ القافلةُ .. رحلتْ من صحراءِ أرضِ كنعانَ .. وســـارتْ في طريقِهَا إلى مِصْـــرَ .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ . (٢٠)

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (٢٢)



وصلَ يوسُفُ أرضَ مِصْرَ وبِيعَ رقيقًا .. اشتراهُ العزيزُ .. كبيرُ وزراءِ مصرَ .. وَمكَّنَ اللهُ ليوسُفَ في قلبِ الرجلِ .. فتوسَّمَ فيه الخيرَ وأحبَّه.. أكرمَه .. وأكرمَ مثواهُ .. منحه مكاناً كريمًا لإقامتِه في البيتِ .. إذ قال لامرأتِه :

﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ (٢١)

وعلى مَرِّ الأيامِ .. تأكدَ للرجلِ حسنُ خُلُقِ يوسُفَ ، واستقامتُه وأمانتُه، فأعطاه ثقةً كاملةً .. وجعلَه مسئولاً عن بيتِه وعنْ خدَمِه .. صارتْ كلمةُ يوسُفَ في القصرِ هي العليا بعد سيدِه وسيدَتِه .

هكذا تربى يوسُفُ في بيتِ حاكمٍ من أكبرِ حكامِ مصرَ.. مكَّنَ اللهُ له في قلبِه وفي بيتِه .. فكان ذلك إيذاناً بتمكينِه له في الأرضِ آنئذٍ .

تعرضَ يوسُفُ لسلسلةٍ من المحنِ والصعابِ .. تصورَ العقلُ البشـــرىُّ وقتئذ أنها مأساةٌ عُظمى.. ولما اكتملتْ أحداثُ القصة.. وَبعُـــدَ بهـــا الزمانُ.. راحَ العقـــلُ البشرىُّ يفكرُ فيها مـــن جديدٍ .. ويتأملُها مـــن بعيدٍ .. فأدركَ الحقيقةَ .. أدرك أن تلك المحنَ ما كانت إلا تربيةً وابتلاءً .. إعدادًا لتحملِ المسئوليةِ الكبرى .. كانت حكمةً عليا .. خطـــوةً علـــى الطريقِ .. الطريقِ الذى قدَّرَه الحكيمُ الخبيرُ – جل جلالُه – ليوسُفَ المحسنِ الصِّدِّيقِ .

لقد أرادَ بنو إسرائيلَ له أمرًا .. وأراد اللهُ له أمرًا .. فنفَـــذَ أمـــرُ اللهِ . ومضى يوسُفُ فى الطريقِ .. ولما كَبرَ .. وبلغَ أشُدَّه آتـــاهُ اللهُ حكمـــًا وعلمًا.. وعلَّمهُ تفسيرَ الرؤى .

عاشَ يوسُفُ فى بيتِ العزيزِ منذ الصِّبا حتى الشبابِ .. إنها أصعـــبُ فَترةٍ فى حياةِ إنســـانٍ .. عاشها مع امرأةِ العزيزِ بين جدرانِ بيتٍ واحدٍ .. وكانتْ شابةً جميلةً حسناءَ .. أحبَّتْ يوسُفَ واشتعلَ قلبُها حبًّا .. فراحتْ تُلقِى عليه شِباكَ الحُبِّ والهُيامِ .. وتَرميه بحِيَلِ الإغواءِ والإغراءِ . وتجـــاهلَ يوسُفُ حبُـــهَّا .. أعرضَ عنه .. فثارت .. مزَّقـــتْ أســـتارَ الحيـــاءِ .. وَغرقتْ فـــى بحـــرِ الغرامِ .. بينما كان يوسُفُ سابحـــًا فـــى فضـــاءِ الإيمان، تصورتِ المسكينةُ أنها أَحبَّتْ إنسانًا عاديًّا.. ولم تدركْ أنها أحبتْ نبيًّا .. إنها لمأساةُ !

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾
(٢٣)

جُنَّت المرأةُ ! غلّقت الأبوابَ .. وراحتْ تطـــاردُ الفتـــى ! لكنـــه صدَّها .. استعاذَ باللهِ منها ؛ ثم قال : إن زوجَكِ ســـيدى .. أكرمَنـــى وأحسنَ مثواىَ .. فلا يمكنُ أن أخونَه أو أظلِمَه أبدًا .

واستمرتْ تُلاحقُه كأنها لم تسمعْ شيئًا ..

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ . (٢٤)

همَّت امرأةُ العزيزِ بيوسُفَ همَّ الفعلِ .. وكاد – عليه السلام – يَهُمُّ بها هَمَّ النفسِ .. لولا أن رأى برهانَ ربِّه .. إنه إنسانٌ .. بل وفتًـى فـــى ريعانِ الشبابِ .. ومع ذلك فقد كاد أن يَهُمَّ بالنفسِ فقط .. لكنه نبـــىٌّ معصـــومٌ .. فامتنعَ لعصمتِه ولحرصِه على طاعةِ اللهِ ورضاه . وقد شَهِدَ اللهُ تعالى ببراءةِ يوسُفَ من الهَمِّ حين قال : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ . (٢٤)

لما صرفَ اللهُ عنه السوءَ والفحشاءَ .. آثرَ التخلصَ مِـــنْ غَوايتِهـــا .. فاستدار عنْها وفرَّ نحوَ البابِ .. أسرعتْ وراءَه تلاحقُه .. واستَبَقَا البابَ.. راحتْ تحولُ بينَه وبين الخروجِ .. فتعلقتْ بثوبِه .. جذبتْه من قميصِه .. وقدَّتِ القميصَ من دُبُرٍ .. مزَّقتْه من الخلفِ ..

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ ﴾ . (٢٥)

وجدا زوجَها عند البابِ .. إنّه العزيزُ !!!

ذُعِرَ منْ هَوْلِ ما رأى .. وسُرعانَ ما تلونَتِ المرأةُ .. تمالكتْ نفسَها.. وارتدَتْ ثوبَ الطهرِ والعفافِ .. تخفَّت وراءَ ستارِ الحياءِ .. اقتربتْ منه بجرأةٍ وثباتٍ .. ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . (٢٥)

ثم انطلقتْ باكيةً .. وراحتْ تُلقى بخطيئتَها على يوسُفَ .. زعمتْ أنه راودَها عن نفسِها فامتنعتْ .. وهربتْ نحوَ البابِ .. وإذا بها تجدُ سيدَها ! لينقذَها من ذلك الموقفِ الرهيبِ ! يالَكِ من امرأةٍ !!

ذُهِلَ يوسُفُ البرىءُ .. أرادَ أن يدافعَ عن نفسِه أمامَ الرجلِ الذى أكرمَه وربَّاه .. فقال بحياءٍ : بلْ هى التى راودتنى عن نفسى .. ولما هَرَبْتُ نحوَ البابِ .. أمسكَتْ بقميصى ومزقتْه .

وشَهِدَ شاهدٌ منْ أهلِهَا .. كان قريبًا لامرأةِ العزيزِ .. شَهِدَ بالعدلِ ونطقَ بالحقِّ .. قال : إن كان قميصُه قد تمزقَ من الأمامِ فهى صادقةٌ وهو من الكاذبينَ .. لأن ذلك يعنى أنه أقبلَ عليها يراودُها عن نفسِها .. فدفعتهُ عنها .. ومزقتِ القميصَ .. قَدَّتْهُ من قُبُلٍ .

أما إن كان القميصُ قَدْ قُدَّ من الخلفِ فهى كاذبةٌ وهو من الصادقينَ.. فذلك يدلُّ على أنه حاولَ التخلصَ منها .. فاستدار عنها .. واندفعَ نحوَ البابِ .. فلحِقتْ به .. وأمسكتْ قميصَه من الخلفِ .. وقَدَّتْهُ من دبرٍ .

هكذا ظهر الحقُّ .. وشهدَ الشاهدُ ببراءةِ يوسُفَ من الهَمِّ بامرأةِ العزيزِ.. فقد كان القميصُ قد قُدَّ من دُبرٍ .

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (٢٨)

وشهدَ العزيزُ ببراءةِ يوسُفَ .. فقدْ ثبتتِ التهمةُ على امرأتِه .. امرأتُه الكاذبةُ الخائنةُ .. وانطلقَ العزيزُ ينطقُ بالحكمِ فى القضْيةِ .. قال :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (٢٩)

هكذا ببساطةٍ : يوسُفُ انسَ الموضوعَ .. ولا تُحدِّثْ بهِ أحداً .. أما أنتِ أيتها الزوجةُ .. فاستغفرى لذنبِكِ لأنكِ أخطأتِ .. وانتهى الموضوعُ !

تصورَ الرجلُ أنه حسمَ الأمرَ وفصلَ فى القضيةِ ! لم يدركْ أن للقصورِ جدراناً .. وأنَّ جدرانَ القصورِ تسمعُ وتتكلمُ !

كيد النسوة

وتسربَ الخبرُ فى المدينةِ .. إنه خبرٌ مثيرٌ.. تلقَتْه النِّسوةُ .. فوجدن فيه مادةً ممتعةً شهيةً للنقاشِ والتسليةِ ! ورحنَ يتهامسنَ .. يُبدينَ رأيهنَّ فى الموضوعِ .. ويتحدثنَ . ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . (٣٠)

لقد جُنَّتِ المرأةُ..ضَلَّتْ ضلالاً مبينًا..نسيتْ أنها امرأةُ عزيزِ مصرَ.. وراحتْ تحبُّ وتهوَى .. وقعتْ فى غرامِ فتًى صغيرٍ ..خادمٍ فى القصرِ .. إنها حقًّا مجنونةٌ !

وسمعتِ امرأةُ العزيزِ بثرثرتِهنَّ ومكرِهنَّ .. فراحت تفكرُ وتكيدُ

لهنَّ : إنهنَّ لم يرينَ يوسُفَ .. لم يعرِفنَ قدرَه .. ولم يدركْــنَ مدى سحرِه وجمالِه ورجولتِه .. فأرادتْ مواجهتَهن بمكرٍ كمكرِهنَّ حتى يعترفن بعذرِها فى ذلك الهوى والغرامِ .

عَرفَتْ أنهنّ زوجاتُ الأمراءِ والــوزراءِ .. المرفَّهَــاتُ المنعمــاتُ .. الأنيقــاتُ الجميلاتُ . فأرسلتْ إليهــن تدعوهــُن إلى مأدبـــةٍ فــى القصرِ ..وأعدت لهن مكانًا مريحًا أنيقًا .

وحضرَ النسوةُ .. جلسنَ على المقاعدِ .. واتَّكـــأنَ علــى الحشــايا والوسائد .. اتكأن مسترخياتٍ مستريحاتٍ .. واحتفتْ بهن امرأةُ العزيزِ .. رحبتْ بهنَّ وقدَّمتِ الطعامَ .. ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ . (٣١)

وفى تلكَ اللحظة : أمرتْ يوسُفَ بالخروجِ عليهنَّ .. إنَّهــا اللحظــةُ المناسبةُ .. إنها المكيدةُ الماكرةُ . وفوجئــن بيوسُفَ أمامَهــُنّ ..

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ .. (٣١)

بُهِــــرْنَ بحسنِــه وجمــــالِــه .. دُهِشْــنَ لوقــــارِه واتزانِـــه .. فقــد أحسسنَ فيــه بالهيبــةِ والجــلالِ .

وسادَ الصمتُ فجأةً ! تَسَمَّرتِ العُيونُ .. شردتِ العقولُ .. وخفقَتِ القلوبُ .. راحتْ تقولُ فى صمتٍ مذهولٍ : أيمكنُ أن يكــونَ هــــذا عبدًا ! مستحيلٌ ! إنه سيدٌ وابنُ سيدٍ .. لا .. إنه ليس من البشرِ .. بل هو مَلَكٌ كريمٌ .

واستمرَ التقطيعُ بالسكاكينِ وهنّ لا يدرينَ ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (٣١)

و لم يشعــرنَ .. وأعلنَّ مشاعرَهنَّ .. ترددتْ همســاتٌ خافتــةٌ .. ترددتِ الهمساتُ راجفةً هائمةً ..

﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ . (٣١)

لم يكنْ جمالُ يوسُفَ جمالاً عاديًّا أو مجردًا .. بــل كــان جمــالاً متوجــًا بالهيبةِ والوقارِ .. كان جمالُ يوسُفَ ينطــقُ بالرجولــةِ .. فقــد تمتــعَ بالعلــمِ والثقافــةِ مما أضفــى عليه قوةً فــى الشخصيةِ وســحرًا فى الحديثِ يأسرُ القلوبَ . تمتع يوسُفُ بجمالٍ خــارقٍ يوحــى بــالقوةِ والحزمِ مع العطفِ والحنانِ . كان يوسُفُ رجلاً جذابــًا برزتْ رجولتُــه وجاذبيتُه فى هيئتهِ .. مــن خُطوتِه .. مــن تعبيراتِ وجهِه .. ونــبراتِ صوتهِ .. فسَحرَتْ به النساءُ .. وتمنّــيْنَــهُ زوجًا وسيدًا .

لقــدْ نجحتِ المكيــدةُ .. وانتصرتِ امرأةُ العزيــزِ علــى سائــرِ النسوةِ .. فراحت تفخرُ عليهن بجرأةٍ وتبجحٍ وتقولُ : هــذا يوسُــفُ .. يوسُفُ الذى لُمتنَّنِي فيه .. وأنتنَّ من نظرةٍ واحــدةٍ طــارتْ عقولُكــنَّ وقطعْتنَّ أيدَ يكُــنَّ . لا أُنكرُ أنــى راودتُــه عــن نفسِــه .. فــامتنعَ واستعصمَ لحسنِ خُلقِه وعفتِه .. لكنى أُحذِّرُهُ .. لقد عصانى مرةً ولــنْ أسمحَ بعصيانِه مرةً أخرى ..

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ . (٣٢)

أتسمعُ يا يوسُفُ ! سوف ترضَى بالذلِّ والإهانــةِ فى السجنِ رغــمَ أنفكَ .. هذا جزاءُ مَن يعصِى لى أمرًا .

سمعَ يوسُفُ التهديدَ .. إنّه دعوةٌ سافــرةٌ مِن امــرأةٍ ذاتِ منصــبٍ وجمالٍ .. وصارتْ الدعوةُ عامــةً .. راحتْ تتوالى تحتَ قدميهِ من كــلِّ الحاضرات[1] . ووقف يوسُفُ مذهولاً حائرًا بين نساءٍ فاتناتٍ مفتونــاتٍ : إنــه بشرٌ قد يَضْعُفُ فى لحظةٍ أمامَ الفتنةِ والإغراءِ كسائرِ البشرِ .. قــد يميلُ إلى إجابةِ دعوتهنّ .. يَصْبُ إليهنّ ويصيرُ من الجــاهلينَ . خــافَ يوسُفُ من الوقوعِ فى الخطيئةِ إن لم يحفَظْهُ اللهُ بقوتــه وقدرتِــه – عــز وجل – وأعرضَ عنهنّ.. لم يغترّْ بحسنِ خُلُقِه وعصمتِه .. ولجأ إلى ربّــه يناجيه .. يستنجدُ به ويدعوه :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ . (٣٣)

---

[1] إن الآيات ٣٣ : ٣٤ تشير إلى أن الدعوة كانت من كل الحاضرات وليست من امرأة العزيز وحدها حيث كــان جمع التأنيث هو السائد : (مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن) (فصرف عنه كيدهن) . وكذلك الآيات من ٥٠ : ٥١ (ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله) .

لقد آثرَ يوسُفُ الحياةَ فى السجنِ على الوقوعِ فى فـتنةِ نساءٍ جميلاتٍ ذواتِ مالٍ وجاهٍ وسلطانٍ .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . (٣٤)

عصـمَ اللهُ يوسُفَ من الخطيئةِ .. زاده قـوةً وثباتًا على الإعـراضِ عنهُنّ .. وصرف عنه كيدَهنّ .. فقد يئسن من محاولاتهنّ .. فامتنعنَ عنه بمكرِهنّ .. وانفضّ الاجتماعُ ! انصرفـنَ مبهوراتٍ متيَّـماتٍ .. ورحنَ يفكرْن في يوسُـفَ .. ويتحدثنَ عنه .. فقد غدا أمنيةً مستحيلةً .. وظلت ذكراهُ حُلْمًا يراودُ خيالَهن .

وانتشرَ الخبرُ فى المدينة .. تسربَ من قصورِ الحكـامِ إلى شـوارعِ وبيُوتِ المدينةِ .. راحَ الناسُ يتحدثونَ عن امرأةِ كبيرِ الوزراءِ التى راودتْ خادمَها عن نفسِه فرفضَ حبَّها .. وعن زوجاتِ الـوزراءِ اللاتى قطّعـنَ أيديهنَّ بالسكاكينِ رغبةً وحبًّا فى الخادمِ نفسِه .. واستمرّ الحديثُ عـن يوسُفَ .. عن فاتنِ الأميرةِ الجميلةِ السـاحرةِ .. وسـاحرِ الأمـيراتِ الجميلاتِ الفاتناتِ.

ووصلَ الكلامُ إلى السلطاتِ الحاكمةِ ، أزعجَها ! وكانتِ الداهيـةُ ! لقـد نطقتِ الآياتُ ببراءةِ يوسُفَ .. وإدانة امـرأةِ العزيـزِ وسائـرِ النسوةِ .. لكن مظاهرَ القصورِ لابد أن تُصَانَ ! وهيبةُ الجهـازِ الحاكمِ لابد أن تُحترَمَ ! فكان لابد للحقيقـةِ أن تنعكـسَ ! فـانقلبتِ

الأوضاعُ ! يا للعجبِ ! عجزَ كبراءُ الرجالِ عن صيانةِ بيُوتِهم وحُكمِ نسائِهم ! عجزوا عن تعليمهِنّ معنى الفضيلةِ والكرامةِ والوفاءِ ! وتمكنوا من يوسُفَ البرىءِ .. تمكنوا منَ الإنسانِ الذى صانَ لهم نساءَهم وحفظَ كرامتَهم .. أرادوا أن يقدموه فداءً لسمعتِهم .. فقرروا إلقاءَه فى السجنِ حتى تخمُدَ الألسنةُ المشتعلةُ .. وتسكتَ عنِ الكلامِ .. رأوا أن يسجنوه إلى وقتٍ غيرِ معلومٍ إنقاذًا لهيبتِهم .. واعتُقِلَ يوسُفُ .. دخلَ السجنَ .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ . (٣٥)

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

(٤٦)

يوسُفُ فى السجنِ

أُنْقِذَ يوسُفُ من مطارداتِ امرأةِ العزيزِ وإزعاجِ النِّسوةِ وثرثرةِ النساءِ .. فدخلَ السجنَ .. ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ .. (٣٦)

أحدُهُما رئيسُ سقاةِ الملكِ الذى يسقيهِ الخمرَ .. والآخرُ رئيسُ الخبازينَ .

وفي السجنِ : تعبَّدَ يوسُفُ لربهِ كثيرًا .. أحسن إلى زملائه المساجينَ .. واشتهر بينهمْ بالصدقِ فى كلِّ شيءٍ حتى سُمِّيَ يوسُفَ الصِّدِّيقَ.. فوَثِقُوا فيهِ وأحبُّوه جميعًا .

وآه منَ الحبِّ في حياةِ يوسُفَ ! فقدْ أحبَّه أبوه من قبلُ فألقاه إخوتُه فى البئرِ ! وأحبتْهُ امرأةُ العزيزِ والنسوةُ فأُلقىَ فى السجنِ ! تُرَى ؟! ماذا ينتظرُ يوسُفَ منْ حبِّ أصحابِهِ المساجينِ ؟!

أصبحَ الساقى والخبازُ يومًا ؛ وقد رأى كلٌّ منهما رؤيا .. اقتربا من يوسُفَ وأَنسَا إليه .. راح كلٌّ منهما يقصُّ عليه رؤياهُ .. فقال الساقى : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ ﴾ . (٣٦)

رأيتُنى أعصرُ العنبَ حتى صار خمرًا.

وقال الخبازُ : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ ﴾ (٣٦)

فَسِّرْ لنا الرؤيا يا يوسُفُ .. إنَّا نحبُّكَ .. ونثقُ بك .. لأنَّا نراكَ مِنَ المحسنينَ .

عَرَفَ يوسُفُ أن أحدَهما سوف يَلْقَى مصيرًا أليمًا ؛ فأراد أن يتلطفَ فى الحديثِ .. ويمهدَ له قبلَ أن يخبرَهما بتأويلِ الرؤيا . قال : سوف أنبئُكُما بتأويلِ الرؤيا .. سوفَ أفسرُها لكما قبلَ أن يأتيَكما طعامٌ تأكلانه اليومَ.. ذلك مِمَّا علَّمنى ربى .

وكانت الفرصةُ ليفصحَ عن دعوتِه إلى اللهِ .. فراحَ ـ عليه السلامُ ـ يخطو إليهما بذكاءٍ .. ويدنو منهما بحذرٍ ولينٍ .. فلم يوجِّهْ لهما اتهامًا مباشرًا بالكفرِ حتى لا يَنْفِرَا منه ويُعْرِضَا عنه .. إنما كان حديثُه لهما عامًّا .. عن قومٍ يشركون باللهِ ولا يؤمنون بالآخرةِ .. وعنِ الناسِ بصفةٍ عامةٍ .. إذْ قالَ : لقد تفضلَ علىَّ ربى وعلمنى تفسيرَ الرؤى لأنى

﴿ تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ . (٣٨)

فلن نشركَ باللهِ شيئًا .. ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ . (٣٨)

ولكن أكثرَ النـــاسِ لا يهتدونَ .. لا يُقَدِّرونَ قيمةَ هذا الفضلِ العظيمِ .. قيمةَ الإيمانِ باللهِ وحدَهُ دونَ سواهُ .. إن أكثرَهم لا يشكرونَ .

اطمأن الفَتَيانِ إلى يوسُفَ .. وتأكدتْ لهما قدرتُه عـــــلى تـــأويلِ الرؤى .. وراحا يُنصتانِ إليه بكلِّ ثقةٍ واهتمامٍ .

وظل يوسُفُ يتوددُ إليهما .. ويجعلُ منهما صاحبينِ حتى يتوغلَ فـــى أعماقهـــما ويجذبَ انتباهَهما .. فيتمكنَ من إقناعهما بأن عبادةَ ربٍّ واحدٍ خيرٌ منْ عبادةِ أربابٍ متفرقةٍ يعبدونَها هم وقومُهم وآباؤهم من دونِ اللهِ .

وطرحَ عليهما سؤالاً يخاطبُ به الفطرةَ والعقلَ :

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ ! (٣٩)

هكذا حطَّمَ يوسُفُ الحواجزَ بينه وبينهما .. تمكَّنَ مـــن قلبيهمـــا .. خاطبَ فيهما الفطرةَ والعقلَ .. فاخــترقَ إطـــارَ المواجهـــةِ العامـــةِ .. وأصبحت المواجهةُ شخصيةً مباشرةً .. إذ قالَ :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . (٤٠)

هكذا كانت دعوةُ يوسُفَ .. بل دعوةُ جميعِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ .. إنَّها الدعوةُ إلى التوحيدِ .. والإيمانِ بالآخرةِ .. أفصحَ عنْها يوسُفُ فى الوقتِ المناسبِ قبلَ تفسيرِ الرؤيا حتى يصبحَ تأثيرُها فعَّالاً .. وحتى يُهَدِّئَ من وقعِ الصدمةِ على الخبازِ الذى رأى أنه سوف يُقتلُ .

أرادَ يوسُفُ أن يُنقذَهُ بالإيمانِ حتى لا يَأْسَى على دنيا زائلةٍ فانيةٍ .. ويستشعرَ الأملَ والرجاءَ فى الآخرةِ الباقيةِ .. فينفُذَ ببصيرتِهِ من ذلكَ العالمِ الضيقِ المحدودِ .. إلى عالمِ الخلودِ الواسعِ بلا حدودٍ .. فى رحابِ رحمةِ إلهٍ واحدٍ أحدٍ .. هو اللهُ الرحمنُ الرحيمُ .

كان يوسُفُ حُلْوَ الحديثِ .. رقيقَ المشاعرِ .. وراحَ يفسرُ الرؤيا فقالَ : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ .. (٤١)

سوف يُفْرَجُ عنه ويعودُ إلى عملِه .. فيَسقى الملكَ خمرًا

﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾ . (٤١)

لم يحددْ يوسُفُ أيَّهما الذى يُفْرَجُ عنه ويخرجُ من السجنِ .. وأيَّهما الذى يُصْلَبُ فتأكلُ الطيرُ من رأسِهِ حتى يموتَ . فقد أرادَ ألاَّ يؤذىَ مشاعرَ الخبازِ بمواجهةٍ مباشرةٍ بواقعٍ مؤلمٍ حزينٍ .

كان يوسُفُ إنسانًا .. ضاقَ بالسجنِ وتعلق بالأملِ .. فى لحظة من لحظات الضعف البشرىِّ ابتغى الفرجَ منْ عند غير الله .. أرادَ أن يُعْلِمَ الملكَ بسَجْنه ظُلمًا علَّه يكشفُ المؤامرةَ .. فتُعلَنَ براءتُه ويُفْرجَ عنه .. وفى خفية عن الخبازِ .. قالَ للساقى الذى ظنّ أنه ناجٍ : اذكرنى عند ربِّك .. اذكرْ حالى لسيدِك الملكِ بعدَ ما تعودُ إلى عملك فى القصرِ .

وتحقق تأويلُ الرؤيا : أُفْرِجَ عن صاحبِ شرابِ الملكِ .. وصُلبَ الخبازُ صاحبُ الطعامِ .

عاد الساقى إلى القصرِ يَسقى الملكَ خمرًا .. ونسىَ يوسُفَ ، فقدْ أنساهُ الشيطانُ ذكرَ يوسُفَ عندَ الملكِ ..

﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ . (٤٢)

كان يوسُفُ إنساناً .. وكان نبيًّا .. أراد اللهُ أن يعلِّمَه ألاَّ يلجأَ لأحدٍ سواهُ .. فقد اصطفاهُ سبحانَه وتعالى وأكرمَه .. فلم يجعلْ قضاءَ حاجتِه على يدِ عبدٍ .. فهيأَ له الأسبابَ .. وجاءَ الفرجُ منْ عندِ اللهِ .

رؤيا الملك

رأى الملكُ رؤيا عجيبةً غريبةً ! واستيقظَ من نومه فَزِعًا .. دعا الكهنةَ وكبارَ دولتِه .. جمعَ السحرةَ والعرَّافينَ والعلماءَ .. وراح يقصُّ عليهم رؤياه .. قال : إنى أرى سبعَ بقراتٍ سمينةً .. وسبعَ بقراتٍ هزيلةً

ضعيفةً .. إنها بقراتٌ عجافٌ لكنها انقضّت على البقراتِ السمان وأكلتْهَا .. وأرى سبعَ سنابلَ جميلةٍ خضراءَ .. وسبعَ سنابلَ أخرى جافةٍ يابسةٍ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ . (٤٣)

﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ . (٤٤)

مولانا السلطانُ : كيف تأكلُ بقراتٌ هزيلةٌ بقراتٍ سمينةً ؟! وما عَلاقةُ سبعِ سنبلاتٍ خُضْرٍ بأُخَرَ يابساتٍ ! إنها ليست رؤيا .. بل هى مجردُ أضغاثِ أحلامٍ لا تحتملُ التفسيرَ .

قال الملِكُ : لا أيها المَلأُ .. بل هى رؤيا كاملةٌ تحملُ نبأً خطيرًا .. لكن ما هو ؟! ومن ذا الذى يستطيعُ تعبيرَهُ ؟!

وإذا بصوتٍ يندفعُ بثقةٍ وحماسٍ .. يقولُ : أنا يا مولاى .

والتفتَ الجميعُ إلى صاحبِ الصوتِ .. إنه ساقى الملكِ .. قال :

﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ .. (٤٥)

أرسلونى إلى السجنِ حتى آتِيَ لكمْ بالتعبيرِ الصحيحِ للرؤيا . وراح يذكرُ يوسُفَ الصدِّيقَ الذى نَسيَهُ مُنذُ بِضْعِ سنينَ ، ولم يذكرْهُ إلا تلك اللحظةَ لحكمةٍ عليا .. راح يقصُّ عليهم قدرتَهُ الفائقةَ فى تأويلِ الرؤى .

وذهبَ إليهِ في السجنِ .. قال :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . (٤٦)

لم يغضَبْ – عليه السلامُ – من الساقى .. لم يُعنِّفْهُ ولم يحاسبْهُ على نسيانهِ وصيتَه إيّاه .. لم يساومْ فى أجرٍ أو مكافأة أو جزاء .. ولم يشترطْ الخروجَ منَ السجنِ الذى مكثَ فيه بِضْعَ سنينَ صابرًا محتسبًا .. راضيًا بقضاءِ اللهِ وقدرِه .. لم يترددْ يوسُفُ فى إغاثةِ الناسِ حتى ولو كانوا ظالميه .. وراح يفسرُ الرؤيا : فَسَّرَ البقرَ بالسنينَ وحالَ الأرضِ فى هذه السنينَ .. لأن البقرَ يُستخدَمُ فى زرعِ الأرضِ وسَقْيِ الزرعِ .. ففى البقرِ تكمنُ المشكلةُ .. الخطرُ الذى يهددُ البلادَ .. أما السنبلاتُ فهى الزرعُ الذى ينطوى على حلِّ المشكلةِ وينبئُ بكيفيةِ مواجهةِ ذلكَ الخطرِ الجسيمِ .

قالَ يوسُفُ : إنَّ السبعَ بقراتٍ السمانَ ترمزُ إلى سنواتِ الخصبِ والرخاءِ .. فسوفَ تزرعونَ سبعَ سنينَ متواليةٍ .. تجودُ فيها الأرضُ بالغلاتِ الوافرةِ .

أما السنبلاتُ الخُضْرُ فهى ما تحصدونَ من الأرضِ فى تلكَ السنواتِ الخصبةِ القادمةِ . فما حصدتم فادَّخروه .. اتركوه فى سنابله .. لا تأخذوا منه إلا قليلاً مما تأكلونَ .. خذوا بقدرِ احتياجكُمْ واحتفظوا بالبقيةِ.. خزِّنوه فى سُنبلِه حتى لا يتعرضَ للتلفِ .. فسوف يأتى بعدَ ذلك سبعُ سنواتٍ شدادٍ .. سنواتُ قحطٍ وجَدْبٍ .. لا مطرَ فيهنَّ ولا زرعَ ..

وهنَّ ما يُرْمَزُ لهنَّ فى الرؤيا بالبقرات العجاف اللاتى يأكُلْنَ السمانَ .. فلن تجدوا فيهنَّ شيئًا تأكلونَهُ إلا ما خزَّنتم فى السنابلِ .

هذا تأويلُ الرؤيا حتى يأخذَ الناسُ حِذْرَهم .. وبشَّرْهم أنه بعدَ سنواتِ الجدبِ التى تأتى على ما تدخرونَ فى سنواتِ الخِصْبِ .. سوف يأتى عامٌ فيه رخاءٌ وخيرٌ وفيرٌ .. عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ بماءِ المطرِ فينمو الزرعُ .. ينمو الكَرْمُ فيعصِرونَه خمرًا .. وينمو السمسمُ والزيتونُ فيعصرونَهُ زَيتًا .. إنه عامٌ فيه تنتعشُ الإبلُ والغنمُ والبقرُ فتأتيكم باللبنِ .

لم يكن لذلك العامِ رمزٌ فى رؤيا الملكِ .. بل كانَ عِلمًا خاصًا أوتيهِ يوسُفُ منْ عندِ اللهِ .

انبهرَ الملكُ بتأويلِ يوسُفَ .. أُعجبَ بذلكَ السَجينِ الذى حذَّرَ منْ أمرٍ خطيرٍ .. وأتى بالحلِّ السليمِ .. دون انتظارٍ لأىِّ مقابلٍ .. فأمرَ بإخراجهِ منَ السجنِ ليجعلَه من خاصتهِ المقربينَ .

فلما جاءَ رسولُ الملكِ رفضَ الخروجَ منَ السجنِ .. قالَ يوسُفُ : ارجِعْ إلى الملكِ فاسألْه عن النسوةِ اللاتى قطَّعن أيديَهُنَّ .. دعه يسألْهنَّ : لماذا قطَّعْنها ؟! ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ . (٥٠)

لم يَعُدْ يوسُفُ متلهفًا على الحريةِ كما كان بالأمسِ .. فقد علمتْه السنونَ وأثقلتهُ المحنُ .. لقد ربَّاه ربُّه .. فسكنتِ السكينةُ قلبَه .. واطمأنَّ إلى رحمةِ ربِّه فأبى مغادرةَ السجنِ إلا بالكرامةِ .. وانتظرَ يوسُفُ

لم يتعجلِ الخروجَ .. صَبرَ حتى يتحققَ الملكُ من براءتِه وتُعْلَنَ على الملأ.. فيخرجَ عزيزَ النفسِ .. مرفوعَ الرأسِ .

واستدعى الملكُ بطلاتِ قصةِ الدعوةِ السافرةِ اللاتى قطّعنَ أيديَهُنَّ ! وراح يحققُ معهنَّ ..

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؟ (٥١)

أدركتِ النسوةُ أن يوسُفَ ذو مكانةٍ عُظمى عندَ الملكِ .. فنطقنَ بالحقِّ .. وشهِدنَ ببراءته عليه السلامُ ..

﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ . (٥١)

وتقدمتِ امرأةُ العزيزِ .. يبدو أنها قد تغيرَتْ .. ارتقت بمستوى الحبِّ .. وآمنتْ باللهِ الواحدِ الأحدِ .. فاعترفتْ ببراءةِ يوسُفَ .. شهِدَتْ شَهادةً كاملةً واضحةً بنزاهتِه وصدقِه وعفتِه .. قالتْ :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ .. (٥١)

ظهر الحقُّ وانكشفَ .. ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

هكذا ثبتتْ براءةُ يوسُفَ وأُعلِنَت على الملأِ.

لقدْ شهدَ اللهُ تعالى ببراءةِ يوسُفَ حينَ قالَ عز وجل :

❁ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ . (٢٤)

وشَهدَ الشيطانُ ببراءتِه حينَ قالَ للهِ - سبحانه وتعالى - عن بنى آدمَ :

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ . الحجر (٣٩-٤٠)

شهدَ الشاهدُ من أهلِ امرأةِ العزيزِ وشهدَ العزيزُ .

شهدتْ النسوةُ .. وأخيرًا شهدتِ امرأةُ العزيزِ نفسُهَا ..

فمن يرغبُ فى اتهامِ يوسُفَ بالهمِّ بامرأةِ العزيزِ عليهِ أن يختارَ أن يكونَ منْ حزبِ اللهِ أو منْ حزبِ الشيطانِ .. وكلاهما شـهدَ ببراءةِ يوسُفَ فلا مفرَّ من الاعترافِ بالحقِّ فى كلِّ الأحوالِ .. لا مفرَّ من الإقرارِ بعصمةِ النبىِّ يوسُفَ عليه السلامُ .

وخرجَ يوسُفُ من السجنِ .

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ .



﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .



أُعجبَ الملكُ بيوسُفَ .. واحترَمَهُ قبلَ أن يراه .. أُعْجبَ بنزاهتِه وعلمِه فى تفسيرِ الرؤى .. دونَ اشتراطٍ لأجرٍ أو ثوابٍ ، احترَمَ عزةَ نفسِه حين أبى الخروجَ منَ السجنِ إلا بعدَ استعادةِ كرامته ، وتعجبَ من حسنِ خُلقِه وأمانتِه بعد أن ثبتَتْ براءتُه فطلبَهُ ليستخلصَهُ لنفسه .. يجعلَهُ منْ خاصتِه .. ومنْ أكابرِ مملكتِه .. طلبَهُ ليجعلَه مستشارَهُ وصديقَه الأمينَ .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ . (٥٤)

وجاءَ يوسُفُ .. تكلمَ مع الملكِ .

﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . (٥٤)

لما كلمه أدهشَهُ علمُهُ .. بهرتْهُ ثقافتُه وحكمتُه .. واطمأنَّ إلى وفائه وحسنِ خلقِه وهيبتِه .

وارتقى يوسفُ إلى مكانةٍ رفيعةٍ عندَ الملكِ .. فمنحَهُ النفوذَ .. مكّن له في الأرضِ .. وجعلَه أمينًا آمنًا في حماهُ . لم يُضعْ يوسفُ وقتًا في إلقاءِ كلماتِ المديحِ والإطراءِ على الملكِ .. بل راحَ يفكرُ فيما هو أهمُّ .. راحَ يفكرُ في الأزمةِ المقبلةِ على البلادِ : سوفَ تأتي سنواتٌ متواليةٌ لا زرعَ فيها ولا مطرَ .. كيفَ يواجهُ الناسُ تلك الأزمةَ الطاحنةَ إن لم يسبِقْهَا علمٌ وتخطيطٌ شاملٌ .. تخطيطٌ ينفَّذُ بدقةٍ وحزمٍ في سنواتِ الرخاءِ ؟! من ذا الذي يملِكُ القدرةَ على تخزينِ الغلاتِ في سنواتِ الخصبِ والخيرِ .. وحِفظِهَا لمواجهةِ سنواتِ الجَدْبِ والفقرِ ؟!

من ذا الذي يستطيعُ التكفلَ بإطعامِ شعبٍ جائعٍ محرومٍ سبعَ سنواتٍ شدادٍ ؟! إنها مسئوليةٌ شاقّةٌ قد تُكلِّفُهُ حياتَه أمامَ جموعِ الناسِ الجائعةِ .

وقد وهبَ اللهُ يوسفَ العلمَ والقدرةَ على تحملِ المسئوليةِ .. فتحملَها .. توجهَ إلى الملكِ .. ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾(٥٥)

غدا يوسفُ عزيزَ مصرَ .. وجعلَه الملكُ مسئولاً عن خزائنِ الأرضِ .. إذ كانتْ مصرُ أعظمَ مملكةٍ على وجهِ الأرضِ آنذاك .

أصبح يوسفُ سيدًا حاكمًا بعد أن كان عبدًا مملوكًا .. صار حرًا آمنًا بعد أن كان متهمًا سجينًا .. خرجَ يوسفُ من السجنِ إلى رحابِ العزِّ والسلطانِ .. هكذا مكّنَ اللهُ ليوسفَ في الأرضِ يتخذُ منها ما يشاءُ .. ويحكمُ كيفما يشاءُ .. فقد جزاه اللهُ خيرًا عن الصبرِ

والإحسانِ .. فاللهُ دومًا يَجْزِى المؤمنينَ الصابرينَ خيرًا فى الدنيا .. وفــى الآخـــرةِ .

وقد صَبَرَ يوسُفُ كثيرًا .. صبَرَ على الحرمانِ من حنانِ الأبِ .. قسوةِ الإخوةِ والإلقاءِ فى الجُبِّ .. صَبَرَ على العبوديةِ وكيدِ النسوةِ .. صمَدَ أمامَ الفتنــةِ والخطيئةِ واعتصـــمَ .. وصـــبَرَ على بِضْــعِ ســنينَ قضــاها فى السجنِ .

لقد علَّمـــه ربُّـــه .. أعـــــدَّه ورباه حتى يؤهلَهُ لِتَحمُّلِ المســـئوليةِ العُظمى .. وتحمَّلَها يوسُفُ .. تحملَ عبءَ الوزارةِ .. وقام بـــالدعوةِ إلى التوحيدِ .. وعاشَ يوسُفُ مُمَكــنًا آمنًا فى ظـلالِ رحمةِ اللهِ ورضاهُ .

راحَ يوسُفُ يخططُ لاقتصادِ مِصْرَ .. بل لاقتصـــادِ الأرضِ وقتئـــذٍ .. مرتْ ســنواتُ الخصبِ .. وجاءتْ سنواتُ الجَدْبِ .. انتشرَ الفقرُ والجوعُ والحـــرمانُ .. واجتاحتِ المجاعةُ مختلفَ البلدانِ .. جاءتْ صفوفُ الجماهيرِ من أنحــاءِ الأرضِ تلتمسُ طعامًا منْ عزيزِ مصرَ .. وجاءَ إخوةُ يوسُفَ منْ أرضِ كنعانَ .. جاءوا من بلادِ الشامِ يبحثون عن القوتِ فـــى مِصْـــرَ .. فدخلوا عليـــه .. فعرَفَهم ولم يعرِفُوه .. لم يَجُلْ بخاطرِهِم لحظةً أن يوسُفَ الصغيرَ الذى ألقَوْه فى الجبِّ لا يزالُ حيًّا .. بل وصار عزيـــزًا لمصـــرَ .. أعظمَ بلدانِ الأرضِ يومئذٍ.

تفقدَهم يوسُفُ بنظرةٍ واحدةٍ من عَينيْه .. فلم يرَ أخــــاه بنيـــامينَ .. وانتابَه القلقُ على أخيهِ الصغيرِ .. فأكرمَهم وأحسنَ ضيـــــافتَهم .. وراحَ

يستدرجُهُم في الحديثِ .. حتى أطمأن إلى أن بنيامينَ ويعقوبَ ما يزالان على قيدِ الحياةِ .. وأن يعقوبَ يخافُ على بنيامينَ بعد فقدِ أخيه يوسُفَ .. ولا يسمحُ بفراقه أبدًا .

كان يوسُفُ يبيعُ للشخصِ الواحدِ مقدارَ حِملِ بعيرٍ واحدٍ .. مقـدارَ ما يحملُه جملٌ أو حِمارٌ واحدٌ خلالَ فترةٍ محدودةٍ .. فلم يَبِعْ لكلِّ مشترٍ ما يريدُ حتى يكفيَ القوتُ الجميعَ طَوالَ سبعِ سنواتٍ متوالية .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ . (٥٩)

لما أعطاهمْ بضـاعتَهُمْ .. لكلٍّ منهم حِمْلَ بعيرٍ .. وحُمِلَتْ أحمالُهم على الأباعيرِ .. وحانَ وقتُ الرحيلِ .. قالَ : لقد قلتـُم : إن لكم أخًا مـن أبيكم .. فأتـونى به حتى أَزيدَكُم كيلَ بعيرٍ .. ألا تَرَوْنَ أنى أُوفى الكيلَ؟ وأُكرِمُ الضيفَ ؟ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ . (٦٠)

فمن يُدرينى لعلـكم جواسيسُ !! إن لم تثبتوا صحةَ ما تقولونَ .. وتأتوا بأخيكُمْ الذى عنه تتكلمونَ .. فلن أعطيَكُم شيئًا .. ولا تأتونى .

هكذا رَغَّبهم يوسُفُ .. حبَّبهم ليأتوه ببنيامينَ .. ثم رهَّبهُم وخوَّفَهـم إن لم يأتوه به .. فردوا عليه .. ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ . (٦١)

سوف نحاولُ مع أبينا .. سنبذلُ أقصى جُهدِنا حتى يتركَـــه لنـــا .. وسوف نأخذُه .. إنَّا لقادرونَ .

أراد يوسُفُ أن يضمنَ عودتَهم إليه فقال لفتيانه سرًّا : ردوا بضاعتَهم التى دفعوها ثمناً لذلك الطعامِ .. اجعلوها فى أمتعتِهم حتى يعرِفوها بعـــد عودتِهم إلى أهلِهم لعلهم يرجعونَ . ففعلَ الخدمُ .. وضعوا البضاعةَ فـــى رحالِ بنى إسرائيلَ .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ . (٦٣)

لقدْ منعَنا عزيـــزُ مصرَ من شراءِ القمحِ والغلالِ بعدَ اليومِ إلا إذا أتينا له بأخينا .. ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ . (٦٣)

إنَّا له لحافظونَ ! يالَهُ من وعد ! إنه وعدُهم ذاتُه حـــينَ أرادوا إبعـــادَ يوسُفَ الحبيبِ .. وتجرَّعَ الأبُ ذكرياتِ الماضى الحزينِ .. فلم يَعُدْ يأمنُهم على بنيامينَ إلا كما أمِنَهم على يوسُفَ منذ سنينَ .. وراحَ يجهرُ بما فـــى نفسِه من شُجونٍ ..

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ . (٦٤)

دعونى من وعدِكُم وحِفْظِكُم فقد تجرعْتُ مرارتَه من قبـــلُ .. فـــإن رجوتُ الحفظَ لولدى .. والرحمةَ بى فلنْ أرجوه إلا مِنَ اللهِ ..

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ . (٦٤)

كيدُ[1] الله ليوسف

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ .. (٦٥)

فتعجبوا وأسرعوا بها إلى أبيهم يقولونَ : يا أبانا هذه بضاعتُنا .. رُدَّتْ إلينا حتى تُصدقَ ما نقولُ .. لقد أخذنا قوتَ عيالنا بلا ثمنٍ ! وليس لهذا إلا معنًى واحدٌ .. إنه إنذارٌ بعدمِ الرغبةِ في البَيْعِ لنا إلا إذا ذهبنا بأخينا .. دعْه يأتى معنا حتى نأتىَ بالزادِ لأهلنا .. ونحفَظَ أخانا .. ونزدادَ كيلَ بعيرٍ .. ذلك كيلٌ سهلٌ يسيرٌ لو أرسلتَ معَنا بنيامينَ .

حارَ الأبُ .. إنه يخشى على ولدِه الحبيبِ .. لكن القحطَ جِدٌّ شديدٌ .. والأفواهُ كثيرةٌ مفتوحةٌ .. أفواهُ أحدَ عَشَرَ رجلاً بزوجاتِهم وأبنائِهم وأمهاتِهم .. فوافقَ الأبُ .. وافق بشرطِ أن يُعطوه عهدًا أكيدًا .. ويُقسموا باللهِ قسمًا يربطُهم بردِّ ولدِه إليه .. إلا لو نفدَتْ حيلتُهمْ وغُلِبوا على أمرِهمْ أو أُهلكُوا أجمعينَ ..

﴿ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ . (٦٦)

لقد أخذَ يعقوبُ – عليه السلامُ – بالأسبابِ .. أخذ عهدًا على أبنائِه .. ثم استسلمَ لقضاءِ اللهِ .. فوضَ أمرَه إليه .. وتوكلَ عليه سبحانَه وتعالى .

---

(١) (...كذلك كدنا ليوسُفَ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) (٧٦).

ولما آنَ وقتُ الرحيلِ .. تحركتْ مشاعرُ الأبِ الطيبِ الحنونِ .. إنهم أبناؤه رغمَ قسوتهم .. إنهم أحدَ عشرَ رجلاً أقوياءُ أشداءُ .. فخافَ عليهم .. واللهُ أعلمُ مم كان الخوفُ .. أما نحنُ فلا نعلمُ إلا أنَّها حاجةٌ فى نفسِ يعقوبَ قضاها .. فقد علّمه ربُّه .. لكن أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ .

اقتربَ يعقوبُ من بَنيه .. ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ .. (٦٧)

كانَ يعقوبُ يعلمُ أنَّ حكمَ اللهِ نافذٌ .. وأنَّ الحذرَ لا يمنعُ القدرَ .. ورغمَ ذلكَ فقدْ أخذَ حذْرَهُ ثم أسلمَ أمرَه للهِ .. وتوكلَ عليه عزَّ وجلَّ .

وسارَ الركبُ .. نفّذُوا الوصيةَ .. ودخلوا مصرَ منْ أبوابٍ متفرقةٍ .

وحانتْ لحظةُ اللقاءِ بعدَ فراقٍ دامَ سنواتٍ طِوالاً .. دخلَ بنو يعقوبَ على يوسُفَ .. وقعتْ عيناهُ على أخيهِ الشقيقِ .. كانَ مبتئسًا حزينًا وآواهُ يوسُفُ إليه .. انفردَ به وقالَ : إنى أنا أخوكَ .. أنا يوسُفُ .. فلا تحزنْ ولا تبتئسْ بما كانوا يعملونَ .. لقد فرقونَا وجمّعَنَا اللهُ بمشيئته وقدرتِه .

كادَ بنيامينُ لا يُصَدِّقُ .. واحتوتْـهُ الفرحـةُ .. ألقى بنفسِـهِ فـى أحضانِ أخيهِ .. وتعانقا .. جاشت مشاعرُ الشَوْقِ والحنـينِ .. فـاضتِ العيونُ بالدُموعِ .. ورفرفتِ السعادةُ غامرةً .

أرادَ يوسُفُ أن يُبْـقِيَ معه أخاهُ .. وراحَ يفكرُ فى حيلةٍ يحتالُ بهـا على إخوتِهِ .. فكاد له ربُّه .. دَبَّرَ له الحيلةَ .. وألهمَه بها لحكمةٍ فى علمِه هو سبحانَهُ وتعالى .

أمر يوسُفُ بوضعِ الطعامِ فى رحالِ إخوتِهِ .. ولما جهزَهم بجهازِهمْ أمرَ جنَدهُ بإخفاءِ كأسِ الملـكِ الذهبىِّ فى رَحْلِ بنيامينَ .. وكانَ الكـأسُ يُستخدمُ فى الشرابِ .. وفى كَيلِ القمحِ والغَلاتِ .

وتحركتِ القافلـةُ .. هَمتْ بالانصرافِ .. وإذا بصـوتٍ يُـؤَذِّنُ .. إنَّـهُ صوتُ أحدِ حراسِ العزيزِ .. أخذَ ينادى ويقولُ :

أيتُها العِيرُ ! أيتُها القافلـةُ ! انتظروا .. إنكم لسارقون .

والتفتَ الرجالُ .. راحوا يتمتمونَ .. يتساءلونَ فى ذهولٍ : سارقون ؟!

وعادوا أدراجَهُمْ يقولونَ : ماذا تفقدونَ ؟!

قالَ الحرسُ : نفقدُ صُواعَ الملِكِ .. فقد سُرِقَ كأسُ الملـكِ .

وأعلنَ المؤذنُ عن مكافأةٍ لمن يأتى بالكأسِ .. قال :

﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴾ .. (٧٢)

أنا به كفيلٌ مسئولٌ .

أَقْسمَ بنو يعقوبَ . ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ . (٧٣)

قال الحراسُ : وإن كنتمْ كاذبينَ .. ووجدنا الكأسَ في رَحْلِ أحدِكم .. فما جزاؤه في دينكم ؟

قال بنو يعقوبَ : إن جزاءَ السارقِ أن يصيرَ عبدًا مملوكًا لمن سرقَه .. كذلك نجزى السارقينَ الظالمينَ في شريعتِنا .

وارتضَوْا تحكيمَ قانونِهم فيمن تثبتُ عليه السرقةُ لثقتِهم ببراءتِهم .

وأمر يوسُفُ بالتفتيشِ ..

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ (٧٦)

فكانت الدهشةُ الكبرى .. ذُهِلَ الإخوةُ.. وصار بنيامينُ عبدًا ليوسُفَ .. كذلكَ كانَ تدبيرُ اللهِ المحكمِ ليوسُفَ .. فلو كانَ قد احتكمَ لدينِ الملكِ ما تمكنَ منْ أخذ أخيه .. إذ كان القانونُ المصرىُّ يقضى بسَجْنِ السارقِ . وأخذَ يوسُفُ أخاهُ .. أخذه بإرادةِ اللهِ وعلمه ومَشيئته .

تَحَرَّجَ بنو يعقوبَ .. وتحركَ حقدُهم الدفينُ على يوسُفَ وشقيقه بنيامينَ .. راحوا يتبرّءُون منهما .. ويُلقونَ عليهما اللومَ تقرُّباً لعزيزِ مصرَ..

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ . (٧٧)

يالهم من كاذبينَ ! لم يُبْدِ يوسُفُ تأثرًا من قولهم رغمَ براءته وبراءةِ أخيه الشقيقِ .. بل رَمقهم بنظرةٍ منْ عينيهِ .. وقال في نفسِه : أتقذفوننى وأخى بالسرِقةِ !!

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .. (٧٧)

إنه سبحانه وتعالى أعلمُ بحقيقةِ ما تدَّعونَ .

وحار بنو يعقوبَ .. اشتد بهم القلقُ .. فقد عاهدوا أباهم ألاَّ يعودوا بغيرِ بنيامينَ .. إنهم في حرجٍ جدٌّ شديدٍ .. فماذا يفعلونَ ؟!

وراحوا يستعطفونَ العزيزَ . ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . (٧٨)

ورفضَ يوسُفُ أن يأخذَ أحدًا مكانَ بنيامينَ .. رفضَ دون أن ينطقَ بلفظِ السرقةِ أو السارقينَ .. فقد كانَ موقنًا ببراءةِ شقيقه الحبيبِ . فلم يقلْ : إنه سوف يأخذُ السارقَ .. بل أكدَّ أنه لن يأخذَ إلاَّ مَن وجدَ كأسَ الملكِ عندَه .. وإلا كان من الظالمينَ .. وجاءَ ردُّه - عليه السلامُ - دقيقًا عادلاً.. حاسمًا :

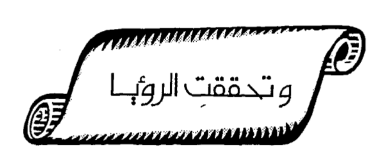
﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾
(٧٩)

هكـــذا حُســـمَ الأمـــرُ .. ولم تَعُـــدْ هنـــاك جـــــدوى مـــــن النقاشِ .. فيئسَ الإخوةُ وانصرفـــوا .. تركـــوا أخاهُم الأصغـــرَ عنـــدَ عـــزيزِ مصرَ .. وراحوا يتناجَوْنَ ويفكرونَ .. يفكرونَ فى الخروجِ مـــن ذلك المأزقِ العظيمِ .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨٠)

✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿ ✿

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴾ . (١٠٠)



يئسَ بنو يعقوبَ منْ أخذِ أخيهمْ الأصغرِ .. تركوه عبدًا مملوكًا لعزيزِ مصرَ .. وانصرفوا رغمَ أنفِهم .. كادَ الغيظُ يفتكُ بهمْ .. وابتعدوا عنِ الناسِ .. راحوا يتشاورونَ فى تلك الكارثة التى حَلَّتْ بهم .. ثارَ كبيرُهم .. صرخَ فيهم وقال : ماذا تفعلونَ أيها الرجالُ الأقوياءُ ؟! كيف تُواجهونَ أباكم أيها الأوفياءُ ؟! ألم تعلموا أنكم عاهدتموه على ردِّ أخيكم إليه سالمًا ! أنسيتُم أنكُم فرطتُّمْ فى يوسُفَ من قبلُ !

إنى لا أستطيعُ مواجهةَ أبى .. ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ .. (٨٠)

لن أغادرَ مصرَ ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ ﴾ (٨٠)

باستردادِ أخى .. ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ . (٨٠ : ٨١)

تركَ بنو إسرائيلَ أخاهُم الأكبرَ .. ورجَعـُوا إلى أبيهِم يقولونَ :

يا أبانا إنَّ ابنَـكَ سـرقَ .. فأخذَهُ عزيزُ مصرَ عبدًا له !.

انتفضَ الأبُ .. فُجعَ فى أبنـائِه وقال : ماذا تقولونَ ؟! أتتهمونَ ابنى بالسرقةِ ؟! أضيعتُموه كما ضيعتُم أخاهُ من قبلُ ؟ !!

قالوا : إنَّا لم نشـهدْ لك إلا بما رأينـا وعلمنا .. أما لـو كان ابنُـكَ بريئًا فهذا فى علمِ الغيبِ الذى لا نعلمُه ..

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ . (٨٢)

اسألْ أهـلَ مصرَ .. واسـألِ القافلـةَ التى أقبلنا فيها .. إنَّا لصادقون يا أبانا .. صَدَقنا هذه المرةَ .. إنَّا حقًّا صادقونَ .

لم يصدِّقِ الأبُ .. فقد اعتادَ منهمْ على الكذب .. وارتعشَ وِجدانُه .. فاضتْ مشاعرُه بالأشجانِ .. واغرورقتْ عيناهُ بالدُّموعِ .. لكنه كَظَـمَ الحزنَ .. وتعلقَ بالأملِ .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . (٨٣)

الله ! ما أحلى الصبرَ الجميلَ !

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .. (٨٣)

إنَّهـا الجملـةُ ذاتُها التى قالها حـينَ عَلِـمَ بفقـدِ يوسُـفَ .

وتجلَّى إحساسٌ قويٌّ فى أعماقِ يعقوبَ .. إحساسٌ أقوى وأصدقُ مِـن ذلك الواقعِ الملموسِ .. إنهُ اليقينُ برحمةِ الله .. إنهُ الشعورُ الذى يضيءُ القلوبَ عندَ الاتصـالِ بالله .. النورُ الهادى .. الرحمنُ الرحيمُ جلَّ جلالُه .

أَحَسَّ يعقوبُ أنَّ اللهَ سوفَ يردُّ إليه أبناءَهُ جميعًا لأنهُ عليمٌ بحاله – عليه السلامُ – حكيمٌ فى أفعالِـه عزَّ وجلَّ .

هكذا فقدَ يعقوبُ أعزَّ أبنائه .. ضاعَ بنيامينُ .. وضاعَ يوسُفُ منـذُ سنينَ .. وغدا يعقوبُ وحيدًا .. غريبًا .. يعيشُ بـينَ أبنـاءِ غربـاءَ .. يتعاملونَ بلغة مختلفة غريبة ! لغة تختلفُ عـن لغـةِ يعقـوبَ ويوسُـفَ وبنيامينَ.. فالفارقُ عظيـمٌ بين لغةِ الحقدِ والقسوةِ .. وبينَ لغةِ الحـبِّ والرحمةِ .

وأعرضَ يعقوبُ عـنْ أبنائه .. تحمَّلَ الأوجاعَ .. تجرعَ الأحزانَ ..

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .. (٨٤)

فقدَ بصرَهُ من فَرْطِ الألمِ وشدةِ البكاءِ . وتعجبَ الأبناءُ .. قالوا : ألا تَزالُ تذكرُ يوسُفَ !! لقدْ ذهبَ ولن يعودَ .. تاللهِ تظلُّ تذكرُ يوسُفَ دون جدوى حتى تذوبَ عليه حزنًا وتُهلِـكَ نفسَكَ .

ردَّ يعقوبُ : دعونى وشأنى فلنْ أشكوَ لكمْ همى .. ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . (٨٦)

ومضى يعقوبُ يستروحُ صلتَــهُ بربّه .. أَنسَ إليه عزَّ وجلَّ .. فتذوقَ حلاوةَ الصبرِ والإيمانِ فى رحابِ اللهِ .. وفى ظـــلالِ رحمتِــه النديــة . وراحتْ صورةُ يوسُفَ الصغيرِ تداعبُ خيالَه الرحيـــبَ .. راحَ صوتُــه الحبيبُ يلمَسُ أوتارَ قلْبه بين الحينِ والحينِ .. ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (٤)

ونبضَ الأملُ فى قلبِ يعقوبَ : اللهُ !! إنَّ يوسُفَ لا يزالُ حيًّا ... إنه لذو شأنٍ عظيمٍ .. وسوفَ يعودُ يومًا.. سوفَ يعودُ معَه بنيامينَ وأخوهُمَا الكبيُر .

وأضاءَ نورُ الأملِ بصيرةَ يعقوبَ .. فلم ييأسْ من رحمةِ اللهِ .. لم ييأس من روْحِ اللهِ أبدًا.

ومرتِ الأيامُ .. تدهورتْ معَها الأحوالُ .. اشتد الفقرُ والحرمانُ فى أنحاءِ البُلدانِ .. وانحدرَ الحالُ بأبناءِ يعقوبَ .. فانكســرتْ نفوسُــهُم .. هُــدَّتْ قواهُم .. ولم تعدْ بضاعتهُم تكفى للحصولِ على الزادِ .. فلم يبقَ معهم سوى بضاعــةٍ قليلة .. إنها مجردُ بضاعةٍ مُزْجَــاة . ضاقتْ بهـــم الدنيا .. ولم يَعُــدْ أمامَهم سوى الفــرارِ إلى عزيزِ مصْــرَ .. يســألونَه الصدقةَ .. فلعلَّ قلبَهُ يميلُ إليهمْ ويَرقُّ .

وراحَ يعقوبُ ينادى على بنيه فى حُنــوٍّ يحتويهمْ أجمعينَ.. فقد اشتدَّ به الشوقُ والحَنينُ .. قال :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ

لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . (٨٧)

وتحركَ الركبُ .. بدأ الرحيلُ إلى ديارِ مصرَ .

ولما وصلَ بنو إسرائيلَ.. تفتَّحتْ لهم الأبوابُ.. ودخلوا على عزيزِ مصرَ.. ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

واهتزَّ كيَانُ يوسُفَ .. تحركتْ مشاعرُه لِما آلَ إليه حالُ إخوتِه.. إلى هذا الحدِّ بلغَ بهمْ الهوانُ ! جاءوا عزيزَ مصرَ يشكونَ الكربَ والضيقَ والحرمانَ ! شدُّوا إليه الرحالَ ليَسْألُوه عن صدقةٍ !!!

وعادت به الذكرى إلى الماضى البعيدِ .. لقد ألْقَوْه في الجُبِّ فوصلَ إلى قمةِ النفوذِ والسلطانِ .. أبْعَدُوه عن أبيه فاشتد إليه شوقًا وحنينًا .. فرقوا بينَه وبين أخيه فجمَّعهُما اللهُ .. وها قدْ صارتْ رقابُهم بينَ يديه .. فحَقَّ له الانتقامُ منهم والقِصاصُ .. لكنَّ نفسَه المطمئنةَ لا تملِكُ سوى العفوِ والغفرانِ .

وراحَ قلبُ يوسُفَ يلينُ إلى إخوتِه .. يَرقُّ إلى أبيه الحزينِ .. وآن للسرِّ العظيمِ أن ينكشفَ ويَبينَ .

فكانتِ المفاجأةُ ! ذُهلَ إخوةُ يوسُفَ .. تعجبوا حينَ سألَهم عزيزُ مصرَ عما فعلوه بيوسُفَ وأخيهِ بسببِ جهلِهمْ .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ ! (٨٩)

دُهِشَ الإخـــوةُ .. أمعنوا النظرَ إلى عزيزِ مصرَ .. واسترجعـــوا رنينَ صـوتِه : إنه رنينٌ يحملُ شيئًا من نَبراتِ صوتِ يوسُفَ الصغيرِ .. ولاحتْ لهمْ ملامحُ يوسُفَ على وجهِ العزيزِ .. وهمستْ أصواتُهم فى ذهـــــولٍ : يوسُفُ ! أينَ يوسُفُ مِنْ عزيـــزِ مصرَ ؟! وتوجهوا بالحديثِ إلى العزيزِ..

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ ﴾ ! (٩٠)

ردَّ العزيزُ .. ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ . (٩٠)

بُهِتَ الإخوةُ وارتجفوا خوفًا وخجلاً من يوسُفَ .. وها هم ينتظـــرونَ العقابَ .. فاعترفوا بالخطيئةِ .. ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ . (٩١)

وكانتِ المفاجأةُ لبنى إسرائيلَ ! فقد عفا عنهم يوسُـــــفُ الكريـــمُ .. تسامحَ بقلبِهِ الكبيرِ .. ليس هذا فحسب .. بل وَشَعرَ بشدةِ الحرجِ الذى يَعْتَرِيهِمْ أجمعينَ .. فأنهى الموقفَ على الفورِ. ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (٩٢)

ولم يعدْ يوسُفُ يحتملُ ما أصابَ أبــاهُ .. واشتعلَ شـــوقاً إلى أهلــه أجمعينَ .. لكنــه نــبىٌّ وأبــوه نــبىٌّ.. فنطــقَ بالمعجــزةِ : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩٣)

وتحركتِ القافلةُ.. خرجتْ من مِصرَ.. وسارتْ فى الطريقِ إلى بــــلادِ كنعانَ .

ونهضَ يعقوبُ من مكانه .. خفقَ قلبُه النابضُ بنورِ الأملِ .. الأمـــلِ الذى بَدَّدَ ظلامَ الحزنِ .. فأضاءَ قلبَه باليقينِ .. ها قد تحـــولَ الأمـــلُ إلى يقينٍ .. إلى حقيقةٍ ملموسةٍ يراها ويستشعرُها .. فوجدَ ريحَ يوسُـــفَ .. وجَدها ببصـــيرتِه القويةِ .. بنفسه المطمئنةِ الموصولةِ باللهِ .. وجدَهَا بروُحِه الهائمةِ فى حبِّ اللهِ .

وخرجَ منْ عزلتِه .. خـــرجَ ينتظرُ يوسُفَ الحبيبَ .. فتعجَّبَ أهـــلُ الدارِ .. النساءُ منهم والأطفالُ . وقال يعقوبُ :

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .. (٩٤)

لكنكم لن تصدقونى .. لولا أنكم تسَفِّهونَ رأيى لصدقْتُمْ ما أقولُ .

وراحـــوا يُغَمْغمونَ ويُفَنِّدون .. يُكَـــذِّبون كلاَمَـــه - عليـــه السلامُ - ويقولونَ : لقد كَبِرَ الرجلُ .. صار شيخًا خَرِفاً .

يقولُ : إنه يجدُ ريحَ يوسُفَ ! كيف !

ألا يزالُ ينتظرُ يوسُفَ ! ألا يصدقُ حتى اليومَ أنَّه لـــن يعـــودَ !

ثُـــم توجهـــوا بنظراتِهم إليه فى دهشةٍ وتعجبٍ .. توجهوا إليه بكلماتٍ لا تليقُ بالآباءِ ولا بالأنبياءِ .. ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (٩٥)

لم يعبـــأْ يعقوبُ بتلك الكلماتِ .. لم يُعِرْها اهتمامًا . وظـــل يراقـــبُ قدومَ يوسُفَ من بعيدٍ .

وجاءتْ البشرى ! وصلَ أبناءُ يعقوبَ .. ألقى أحدُهم قميصَ يوسُفَ على وجهِه .. فوقعتِ المعجزةُ ! وارتدَّ بصيرًا ! ها قد أبصرَ يعقـوبُ ! وزفَّ إليه بنوه خبرَ يوسُفَ .. فلمَعَ بريقُ البهجةِ فى عينيه .. وراحـت دموعُ الفرحةِ تسيلُ على وجنتيهِ ..

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ! (٩٦)

أحسَّ بنو يعقوبَ بالخجلِ .. تملكَهم إحساسٌ قاتلٌ بالحسرةِ والندمِ .. فقد ظلموا يعقوبَ ويوسُفَ وبنيامينَ .. أحسوا بِعظَمِ جُرْمِهم .. ولجئـوا إلى أبيهم علَّه يستغفرُ لهم خطاياهم وذنوبَهم ..

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾ . (٩٧)

رد الأبُ .. ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٩٨)

أجل: إن اللهَ هو الغفورُ الرحيمُ .. فقد ابتَلى يوسُفَ وأباهُ بـالابتلاءِ العظيـمِ . نجحـا فى الصبرِ على الظلـمِ والحرمـانِ .. ولما ضاقتْ بهِما الدنيا .. وبلغَ بِهما الصبرُ ذِروتَه .. لما خَلَصَ كلٌّ منهمـا بقلبِـه إلى اللهِ وحدَه دون سواهُ .. جاءَ فرجُ اللهِ .. فعاودَ يعقـوبَ نـورُ البصـرِ .. وانزاحتِ الغشـاوةُ عن بصيرةِ بنيهِ .. وهاهم يتأهبونَ مع ذريتهِمْ وأهليهِمْ أجمعينَ إلى الرحيلِ .. الرحيلِ إلى يوسُفَ الذى وصـلَ إلى ذِروةِ الجـاهِ والسلطانِ .. هاجروا جميعًا إلى مصرَ .

رفرفتْ عليهم الفرحةُ .. وطارتْ بيعقوبَ إلى ولدِه الغائبِ الحبيبِ .. إلى يوسُفَ .. عزيزِ مصرَ .

وآنَتْ لحظةُ اللقاءِ .. دخلَ يعقوبُ وزوجُه وبنوه على يوسُفَ . طار به الشوقُ واللهفةُ والحنينُ إلى أمهِ وأبيهِ .. فاحتواهما بعناقٍ حارٍّ طويلٍ .. وسرتْ ارتعاشةٌ فياضةٌ بالحبِّ والحنينِ .. فتلاقتْ خفقاتُ القلــــوبِ .. وتساقطتْ دمُوعُ العيُونِ .. والتفُّــوا جميعًا بين أحضانِ سعادةٍ دافئةٍ حانيةٍ غامرةٍ .

وتحققتِ الرؤيا .. إذ آوى يوسُفُ إليه أبويْه .. رحَّبَ بهما..

﴿ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾.. (١٠٠)

سجدَ ليوسُفَ إخوتُه الأحدَ عَشَرَ وأبواه .. إذ كان السجودُ لمنْ هــــو أرفعُ شأناً عادةً للناسِ حينئذ .

وعادت الذكـــرى بيوسُفَ وأبيه عَبْـــرَ سنوات طِـــوالٍ .. جـــاءتْ برؤيا يوسُفَ من زمنٍ بعيدٍ .. وراحتْ تداعبُ خيالَه .. راحَ صوتُه يهمسُ في صدرِ يعقوبَ ..﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ . (٤)

وها قد تحققتِ الرؤيا بعد سنواتٍ طال بها الزمانُ .. وفـــي غمــرةِ الفرحة بلقاءِ الأحبة نظر إلى أبيه .. ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ

﴿ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (١٠٠)

أجل .. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

لقد قالها يعقوبُ فى بدايةِ القصّةِ .. ثم قالها عند فقد بنيامينَ .. وها هو يوسُفُ يكررُها فى النهايةِ .. فالله حقًّا هو العليمُ بخلقه .. الحكيمُ فى قضائِه وقدرِه .

وتوارى يوسُفُ عن الأهلِ والأحبابِ.. توارى عن العزِّ والسلطانِ .. ووقفَ بين يدى ربِّه يناجيه ويدعوه :

﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١٠١)

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾ (١٠٢)



المراجـــــع

القرآن الكريم ..

المعجم المفـهرس لألفـاظ القرآن الكريم - محـمـد فؤاد عبـد البـاقى - دار الريان للتراث .

تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - المكتبة التجارية الكبرى .

فى ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق .

تفسير الشعراوى - محمد متولى الشعراوى - أخبار اليوم .

كلمات القرآن - حسنين محمد مخلوف - دار المعارف .

لسان العرب - ابن منظور - دار الكتب العلمية .

المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية .

مختار الصحاح - الإمام الرازى - دار التنوير العربي .

الأساس فى اللغـة العربية : أحـمـد طاهر حسنين ، عبـد العزيز نبوى - الصـدر لخدمات الطباعة .

البداية والنهاية - ابن كثير - دار الريان للتراث .

الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار الريان للتراث - دار الكتاب العربي .

قصص الأنبياء - ابن كثير .

قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار .

النبوة والأنبياء - محمد على الصابونى .

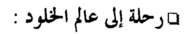
فى رحاب الأنبياء والرسل - د. عبد الحليم محمود - أخبار اليوم .

أنبياء الله - أحمد بهجت - دار الشروق .

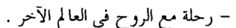
قصص الحيوان فى القرآن - أحمد بهجت - دار الشروق .

محمد رسول الله والذين معه - عبد الحميد جودة السحار - مكتبة مصر .





كتب باللغة العربية :



□ **رحلة إلى عالم الخلود :**

- رحلة مع الروح فى العالم الآخر .
- علامات الساعة الصغرى والكبرى .
- عدالة يوم القيامة .
- ظلال الرحمة يوم الفزع الأعظم .
- فى رحاب الرحمن يوم الميعاد .

ولا تزال للسلسلة بقية إن شاء الله .

□ **حكايات سورة الكهف للأطفال** (عالم الأسرار) .

الناشر : المختار الإسلامى .

كتب باللغة الإنجليزية :

- The Soul's Journey After Death.
- The Day of Rising.

الناشر : دار التقوى - إنجلترا - لندن .

شرائط كاسيت :

□ **قصص القرآن** - إعداد وإلقاء : الكاتبة .

- عالم الأسرار : رحلة الأسرار (موسى والعبد الصالح) ، ذو القرنين ويأجوج ومأجوج .

إنتاج : شركة نورهان للإنتاج الفنى .

- عُزير والحمار .

إنتاج : شركة الشروق للصوتيات والمرئيات .

فهرس

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

القصةُ فى سطورٍ

أنعمَ اللهُ على يوسُفَ - عليه السلام - برؤيا صادقةٍ، أطلعَه على قدره المكتوبِ فى علمِه الأزلىِّ، وتوالتْ أحداثُ القصةِ: تعرّضَ يوسُفُ للعديدِ من المحنِ.. فلم ييأسْ.. بل صبرَ واجتهدَ.. أخذ بالأسبابِ وتوكل على ربّه.. ولما بلغ به الصبرُ ذروتَه.. جاء فرجُ اللهِ.. وتحققتِ الرؤيا.. تحققَ قدرُ اللهِ النافذُ.. وانتهتِ القصةُ.. بَعُدَ بها الزمانُ.. ونزلتْ آياتُ فى قرآنٍ مجيدٍ.. لتكون عبرةً لأولى الألبابِ. وأنتَ أيها القارئُ من أولى الألبابِ! تعلَم أن أنبياءَ اللهِ مُثُلٌ عليا.. قدوةٌ عُظمى.. فأين أنت من تلك القدوةِ؟ وما دورُك فى مواجهةِ الصعابِ؟

صديقى القارئُ: لاتطلبْ من الدنيا أن تصيرَ لك جنةً.. ولا تجزعْ لما يصيبُك فيها من أحزانٍ.. إنها الدنيا.. فلتطمئنَّ نفسُك.. ولتعلمْ أن قدرَ اللهِ نافذٌ.. وأن فرجَ اللهِ لابد آتٍ.

أخى الإنسانُ: هيّا نستبقِ الجنةَ.. بل ولنطمعْ فى الفردوسِ الأعلى!

البريد الإلكترونى للكاتبة:

E. Mail: Laila_mabrouk@usa-net

AL AHRAM ESTABLISHED 1875

4.00

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر